



{إليك ترتحل القلوب} {وأنذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق}. إنه الأمر الرباني الرحيم، يلقى إلى أبي الأنبياء {إبراهيم عليه السلام}، وقد فرغ من بناء بيت الله الحرام [ببكة]، خير بقاع الأرض، ورفع فيها قواعد أول بيت وضع للناس مباركا، وجعله لهم مثابة وأمنا، أن تشد إليه الرحال، في رحلة لا يدرك معناها ولا تجليلاتها ولا إشرافاتها، إلا من نالها وتفاني ظلالها، وألقى في رحابها كل ما أنقض ظهره من الهموم والذنوب، وطلب فيها معالي الدرجات، وجميل العطايا ومزيد الحسنات.

إنها الرحلة التي تهفو إليها القلوب المتلهفة للقاء المرجو بخيره المرجو، وعطاءه المرتقب، وأنسه المبهج وبهاءه المنير، لتنضيء أروقة النفوس التي أضناها الرحيل من ذنب إلى ذنب، واجفتها محطات الغواية، حتى بانت على شفا اليأس، فانتشرت لها شمس الرجاء، ومدت إليها أشعتها الدفئة، وفتحت لها نوافذ الغفران على مصراعيها، فسارعت تشد الرحال إلى أفق التوبة الرحيب، متتجاوزة كل عقبة كؤود تحاول ثنيها عن رحلتها، وقد أملت بسعة العفو، وجميل الرفد، وكرم المضيف. وتتوالى القرون بتقلباتها على مكة المكرمة، وضيوف الرحمن جماعات ووحدانا يفدون إليها، عابدين طائفين، وليشهدوا منافع لهم ومصالح، لا تناول إلا فيها، وكيف لا؟ وهي مهوى القلوب ومحط الرحال، ومبغى القاصدين ووجهة العابدين، وتمر

على البيت العتيق أمة، تباين شرائعها، وتختلف عقائدها، ما بين موحد ومشرك، وما بين باع عاد متجبر، وما بين مهتد مقتصد عادل، وكلهم يحج البيت ويطوف به ولكن هيبات هيبات أن يتماثل أو أن يقبل المعتقدان.

لقد وضع هذا البيت للتوحيد فلا يعبد فيه غير الله، ورفعت قواعده ليسجد فيه الموحدون له وحده سبحانه، فيرسل الأئمين {محمد صلى الله عليه وسلم} بالهدي ودين الحق، وتتوالى الأحداث مابين بعثته -صلى الله عليه وسلم-، والرفض المكابر من قريش للدين الجديد، الذي لا يتواهم مع جاهلية تلك الحقبة المظلمة من الزمان، ثم هجرته إلى المدينة المنورة، ليقيم من هناك دولة الإسلام الخالدة، ثم عودته فاتحا إلى مكة المكرمة، ليرسي أجمل قواعد السماحة في تاريخ الأمم، ولتبقي كلمته الحانية مثلا على عفو المقتدررين، وعدالة الحاكمين، ورحمة الشريعة المحمدية، [اذهباوا فأنتم الطلقاء]، ويأمره ربه سبحانه وأمته بالحج إلى البيت الحرام، ويكون الحج الركن الخامس من أركان الإسلام .

ويؤذن في المدينة أن رسول الله حاج هذا العام، وتتوافد الأرواح قبل الأبدان، وتتبهج النفوس التي طالما اشتاقت إلى رحاب الله، وبصحبة نبيه الحبيب، ويسير الركب المشوق إلى بيت الله، يقوده السراج المنير، حداءه التلبية، وغذاءه التسبيح والذكر، وخطاه أخف من النسيم، إن كاد ليحلق طائرا ليحط في رحاب البيت العتيق، وتترقب العيون ما يفعله المصطفى -صلى الله عليه وسلم-، لكي يكون لهم هدى وسنة ومنهجا، فيستلم الحجر ويطوف بالبيت سبعا، ثم يخطو إلى مقام إبراهيم قائلا، {واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى}، فيصل إلى ركتين، ثم يتوجه إلى المسعى بادئا بالصفا، قائلا {نبدأ بما بدأ به ربنا}، {إن الصفا والمروة من شعائر الله}، فيسعى سبعة أشواط بينهما، في حالة من المسارعة إلى الرضى الريانى المرجو والمأمول، ويأتي يوم عرفة وتسابق الدموع إلى المآقي، وتسجد الجبه المنيبة لربها، وقد اعترفت بذنبها، وأقرت بالقصير، وطمعت بالغفران، ويظل الرجاء في القلوب حيا، والدعاء موصولا، أن لا ينقضي هذا الموقف الكريم، إلا وقد غمرت أهل الرحمة والمغفرة والقبول، يستذكرون قول نبيهم -صلى الله عليه وسلم- {لو علم أهل الجمع بمن حلوا لاستبشروا بالفضل بعد المغفرة} وهاهي شمس عرفة تؤذن بالغيب، والحجيج يتوجهون إلى المزدلفة، في خطوات رسمها لهم ربهم، في حالة من التميز والسمو الروحي والوجوداني ليكون حجهم منظما ومشاعرهم موحدة وإفاضتهم جماعية جامعة، خلف رسولهم الذي ارتضوه لهم قائدا وقدوة، وتشرق شمس يوم الحج الأكبر، ومني تعج بضيوفها الأحبه، وقد تناقلوا آية البراءة والتمايز والمفاصلة، التي أنزلت على نبيهم [وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله]، فلا المعتقدين سواء، ولا الشرعين متوازيين، ولا العبادتين متماثلين، فلا يحق للباطل أن يشارك الحق مكان عبادته، ولا يحق للرجس أن يجوس في البقاع المطهرة، وتطالب الأمة المسلمة بالتميز والتفاعل والتعامل مع غيرها دون محاباة ولا مداراة ولا غموض، فالكفر كفر والإسلام إسلام وشرع الله أحق بالإتباع.

ويقف النبي -صلى الله عليه وسلم- خطيبا في المسلمين يوم النحر {أيها الناس أى يوم هذا قالوا يوم حرام قل فأي شهر هذا قالوا شهر حرام قل فأي بلد هذا قالوا البلد الحرام قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ألا هل بلغت اللهم قد بلغت فليبلغ الشاهد الغائب لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض}

منهج أقر للأمة يوم الحج الأكبر أن لا تستحل حرمات الله وأن لا تأولوا جهدا في تبليغ كلام الله وسنة رسوله لكي تبقى الأمة وعلى مر الزمان تحكم إلى شرع ربها الذي أقر للإنسانية شرعا يصب في مصلحة الإنسان كإنسان، والمسلم كمسلم، لا يقبل منه شرعا ولا دينا غير الإسلام، بكل الرحمات المبتوثة في شريعته، وبكل النقاء الواضح في عقيدته، وبكل الشمولية، المتفهمة الميسرة العادلة في أحكامه، لتكون الآية التي تنزلت على نبينا الكريم في حجة الوداع، مشيدة بالشرع العظيم مؤكدة على أنه تمام النعمة التي أكرمنا بها وغاية الكمال الذي يرتقي بالإنسان إلى منتهى الرضا بهذا الدين القوي [اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيتك لكم الإسلام دينا]

في رينا لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك.

المصادر: